



أوراق علمية
(117)



مركز سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

إبراهيم الخليل وإقامة الحج على التوحيد (1)

إعداد
عمار بن محمد أعظم
باحث بمركز سلف للبحوث والدراسات

009665 565 412 942 جوال سلف



SALALFCENTER



salafcenter3@gmail.com



SALALFCENTER

المقدمة:

سأل سائل فقال: في زماننا الذي تشعبت فيه الأهواء والقذوات، هل هناك من كتب الله له الذكر الحسن في العالمين من أهل الديانات؟

فقلت: قد حصل ذلك لإبراهيم عليه السلام؛ حيث طلب من المولى بعد جهاد جهيد عاشه في سبيل الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك أن يجعل له الذكر الحسن في الآخرين فكتب الله له ما كان.

فهذا النبي الكريم هو أول من وضع معالم الحج، فهو الذي جاء بهاجر عليها السلام إلى أرض مكة المكرمة، وابنهما إسماعيل عليه السلام الذي نبع بين رجليه ماء زمزم، بعد أن سعت هاجر عليها السلام بين الصفا والمروة فشُرع للناس السعي بينهما بعد، وهو الذي بنى البيت الحرام ووقف على حجر سميّ اليوم بمقام إبراهيم، وأرسى قواعد البيت الحرام وأسس على التوحيد، ولكن أمر التوحيد لم يكن وليد تلك اللحظة في حياته بل كان التوحيد همّه وهدفه في مقتبل عمره كما في منتهى حياته

فعلى يده ويد ذريته ابتدأت مراسم حج بيت الله العظيم، وهم من أرسوا قواعدنا ونصبوا معالمها، وهي من أرقى الأسر الموحدة في تاريخ البشرية جمعاء، فالحج قام في أصله على ذا البيت التوحيدي، وأعادته نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى ما كان عليه من قبل، وفي هذه الورقة سنبرز شيئاً من تلك الجوانب التوحيدية في بيت هذا النبي الكريم؛ لنقف حقيقة هذا المؤسس الحقيقي الذي قامت على يديه معالم الحج ومبانيه، ولنذكر أهدافه ومراميه، ونعلم مقاصده ومعانيه، فقد بنى البيت على التوحيد وشُرع شرائع الحج من أجله.

اللهم اجعل عملنا كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل فيه لأحد شيئاً.

تمهيد:

هذا النبي الكريم الذي كانت عليه يديه بدايات معالم الحج قد صارع الشرك وأهله أيما مصارعة، وقارعهم بالحجة والبيان وبكل وسيلة أوتيها، وعاش حياته يدعو إلى التوحيد والإيمان، وينبذ الشرك والأوثان، ويخلص البشرية من الخرافات والأصنام، وكان أول من يناوئه في ذلك والده الذي بين يديه تربى، وأبوه الذي في كنفه عاش وترعرع، فقد كان أبوه من عبدة الأصنام،

بل كان من صناعتها وبائعيتها، ذلك هو إبراهيم عليه السلام، ومع كون والده من أهل الشرك والأوثان ضرب لنا أروع الأمثلة في البر به والعطف عليه، والاستغفار له حتى أيقن أنه عدو لله حين مات على الشرك فاستغفر وأتاب، وقد أثابه الله تعالى بأفضل الجزاءات وأجزل المثوبات، فقد امتن سبحانه وتعالى عليه بأن جعل الأنبياء كلهم من ذريته، وجعله من عباده الصالحين، وجعل له الذكر الحسن في الآخرين.

وخير من نأخذ عنه قصة إبراهيم وحياته هو ربنا سبحانه وتعالى، وحكاياته عنه في كتابه الكريم؛ ولنستعرض في مبتدأ بحثنا جملة من الآيات التي تكلمت عن دعوته إلى التوحيد ومقارعتة للشرك وأهله بالحجج والبراهين، والمناقشة والحوار بأنواع الأدلة العقلية والواقعية والحسية، يقول الله سبحانه وتعالى: {وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: ٤١ - ٥١].

ففي هذه الآيات بين المولى سبحانه وتعالى تفصيل دعوته لأبيه وأنه دعاه إلى التوحيد وحذره من الشرك، وقد ابتدأ إبراهيم عليه السلام الدعوة به وبقومه أيضا ولم يفرده بذلك كما في الآيات الأخرى مثل قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت: ١٦، ١٧]، فهو قد دعا قومه إلى نبذ الشرك والأصنام، وعبادة الواحد الديان، ودل لهم بالدلائل الواضحة سفاهة ما هم عليه من الباطل والخرافة، وأرشدهم إلى الحق والصواب الذي يقتضيه العقل والمنطق والخبر، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً بذكر قصته للناس، والأمر للنبي صلى الله عليه وسلم أمر لأمته من بعده، يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:

"واذكر أيضا يا محمد إبراهيم خليل الرحمن، إذ قال لقومه: اعبدوا الله أيها القوم دون غيره من الأوثان والأصنام، فإنه لا إله لكم غيره، (واتقوه) يقول: واتقوا سخطه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) ما هو خير لكم مما هو شرّ لكم" (١).

من أدلة إبراهيم عليه السلام على توحيد الله:

ثم انتقل إبراهيم عليه السلام بعد دعوته التوحيدية إلى ذكر الدلائل والبراهين الدالة على ما دعا إليه، يقول الإمام الطبري: "فتأويل الكلام إذن: إنما تعبدون من دون الله أوثانا، وتصنعون كذبا وباطلا...، إن أوثانكم التي تعبدونها، لا تقدر أن ترزقكم شيئا (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) يقول: فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أوثانكم، تدرخوا ما تبتغون من ذلك (وَاعْبُدُوهُ) يقول: وذلوا له (وَاشْكُرُوا لَهُ) على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم" (٢).

فهذه دعوته واضحة، دعا قومه في العراق إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، وذلك هو لب التوحيد.

وقد كانت البرهنة والاستدلال بعد التنظير والاستهلال طريقة إبراهيم عليه كما في هذه الآية وغيرها من الآيات، يقول الله سبحانه وتعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) } [الشعراء: ٦٩ - ٨٣]

ففي هذه الآيات كذلك يقص الله سبحانه تعالى علينا قصة إبراهيم عليه السلام ودعوته لقومه إلى التوحيد وهجر الشرك والأوثان، وهنا يبين الله تعالى لنا استدراج إبراهيم عليه السلام لأهل الشرك وإبطال آلهتهم وإثبات التوحيد، فبدأ ببيان بطلان ما يفعلونه من عبادة الأصنام

(١) جامع البيان ت شاكر (٢٠ / ١٨).

(٢) جامع البيان ت شاكر (٢٠ / ٢٠).

والأوثان، واستدرجهم بسؤالهم عمنا يفعلونه مع معبوداتهم وآلهتهم تلك، فأجابوا بأننا نؤله هذه الأصنام ونعكف على عبادتها ونصلي لها، فكان الجواب والرد الذي أسكتهم أن سألهم عن الدليل الذي يدل على أنه إله يستحق العبادة، وعن أي شيء من الدوافع التي تدفع إلى عبادتها والأدلة التي يستندون إليها في فعلهم ذلك، فقال لهم:

هل تسمع هذه الآلهة التي تعبدونها مناجاتكم وطلباتكم وأدعيتكم؟ ثم إن سمعت فهل تستطيع إجابتكم وتلبية نداءكم وطلبكم؟ ثم هل تستطيع إنقاذكم من عذاب الله وبطشه إن حل بكم؟

هل من نفع تنتفعونه في العاجل أو في الآجل بعد عبادتكم لهذه الأصنام؟

هل من ضرر تتوقونه بعبادتكم لتلك الآلهة سواء منها أو من غيرها، فتحميكم وتقيكم الأضرار؟

فماذا كان جوابهم وماذا كان ردهم؟

لم يكن لهم دليل مقنع أو حجة واضحة يستندون إليها، بل كان قولهم المشركين وأهل الخرافات والأساطير في كل وقت وكل مكان، وهو قولهم: لا ما يسمعونا إذا دعوناهم، ولا ينفعونا ولا يضرون، ويدل على ذلك أنهم أجابوه: وجدنا آباءنا يعبدون هذه الآلهة فعبدناها، ولا نعلم الفائدة والمغزى من ذلك ولا الدافع الذي يدفعنا إلى ذلك غير أننا نتبع آباءنا فيما فعلوا وعبدوا فنحن نفعل ذلك اقتداء بهم!!!

فبان لهم بطلان قولهم وزيف آلهتهم التي يعبدونها، وأبطل الشرك عليه السلام وعبادة الأوثان، وبيّن لهم الدلائل والبراهين التي تدل على الإله الحق، فقال رحمه الله تعالى: إن كل تلك الآلهة التي تعبدونها من دون الله تعالى آلهة باطلة لا برهان على عبادتها ولا دليل على تأليها والانقياد لها، فهي باطلة وأنا لا أقر بها بل أنا بريء منها ومن عابديها، ولكني أعبد من دلت الدلائل والبراهين على استحقاقه للعبادة، ومن تضافرت الآيات والبيّنات على كونه إلهًا متفردًا بالطاعة والانقياد والإخلاص له سبحانه، ثم راح يسرد الدلائل والبيّنات على التوحيد ونبذ الشرك:

- ١- فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ولا شريك له في الخلق، وخالق الإنسان أولى بالتأليه والتقديس والتبجيل، وأولى بإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والانقياد، فمن انفرد بالخلق أولى بالإفراد بالعبادة، وهذا هو التوحيد.
- ٢- وخالق الإنسان أعلم بما يهديه ويصلح له وينفعه سواء أكان في هذه الدار أم في الدار الآخرة بعد الموت، ولذا فخالق الإنسان أولى بالاتباع والطاعة دون ما سواه، بل إفراده بالطاعة والاتباع أمر لا ينبغي للإنسان الإعراض عنه.
- ٣- والله سبحانه وتعالى هو الذي سخر للإنسان كل أنواع النعم التي يتقلب فيها، وهو المستحق تبعًا لذلك لعبادته وطاعته، ومن أهم تلك النعم تسخير طعام الإنسان وشرابه، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في هذا الكون وسخر له أنواع المأكولات والمطعمات والمشروبات، يأكل منها ما لذ وطاب له، وجعل الناس في ذلك أصناف شتى كما جعل المأكولات والمشروبات أصنافاً شتى، فمنهم من يتلذذ باللحوم ومنهم من يتلذذ بالنباتيات ومنهم من يتلذذ بالمشروبات وكل نوع من هذه الأنواع تحته أنواع وأنواع، ولولا تسخير الله سبحانه وتعالى لهذه المطاعم والمشروبات لما استطاع الإنسان أن يعيش يومًا واحدًا على هذا الكون، أليس من سخر كل ذلك هو الأولى بأن يسمع له ويطاع؟! أليس من أعطى الإنسان كل تلك الأنواع من الأطعمة والأشربة أولى بأن يفرد بالعبادة؟! أفيليق بالعاقل أن يعطيه الله سبحانه وتعالى كل تلك النعم ثم يعرض عنه بل ويقبل على غيره ويعبد غيره ويطلب الرزق من غيره؟! أو يجعله سبحانه وتعالى المنعم ومن لا ينعم سواء بسواء؟!!
- ٤- ومن الدلائل على التوحيد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظ الإنسان ويدبر شئونه ويكلؤه برعايته وحفظه وتربيته سبحانه وتعالى، فهو الذي يحفظه من الآفات والعاهات، وهو الذي يشفيه من الأمراض والصائب والموبقات، وهو الذي ييسر له أموره وشؤونه في الحياة وفي الممات، أو من العقل أن يعرض الإنسان عمن كان كذلك ثم هو يقبل على غيره بالطاعة والعبادة والخضوع والانقياد؟! أو يساوي بينه سبحانه وتعالى بين من لا يملك شيئًا من ذلك في العبادة؟!!

٥ - والله سبحانه وتعالى كما خلق الإنسان فبيده سبحانه وتعالى موت هذا الإنسان وفناؤه، فهو المحيي وهو المميت، وهو المالك لمصير الإنسان بعد الموت، وحري بمن كان كذلك أن يكون مستحقاً بإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والطاعة.

يقول الإمام الطبري (٣١٠) في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد: "فربي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضرّ. وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجاً على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطبق نفعاً ولا ضرّاً" (٣).

إبراهيم عليه السلام ودعوته لأبيه إلى التوحيد

والأدهى والأمر في هذه القضية أن أباه كان من أولئك المشركين بالله سبحانه وتعالى، بل ومن عبدة الأصنام والأوثان، بل من صناعها وبائعها، وهو ما جعل دعوته أصعب وأشد من غيره، فهو مأمور بالبر بأبيه ومأمور بدعوته إلى ما يخالف عقيدته وهواه.

فها هو إبراهيم يدعو والده إلى التوحيد ويحذره من عاقبة الشرك والمشركين، وقد بدأ بالحوار معه هنا أيضاً بإبطال آلهته وبالسؤال عن البراهين والحجج الدافعة إلى تأليهها وعبادتها من دون الله سبحانه وتعالى، فقال له: يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {مریم: ٤٢}، وبيّن أنها لا تملك أدوات المعرفة والعلم والإدراك فضلاً عن أن تنفع غيرها أو تضر، "فما تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع (وَلَا يُبْصِرُ) شيئاً، ولا يدفع عنك ضرّ شيء، إنما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع، يقول ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرک، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك" (٤).

وبذلك أبطل عبادة آلهته وبيّن زيف حججهم وخلو عملهم واعتقادهم من البراهين، ثم انتقل عليه السلام إلى بيان ما أوحى الله سبحانه وتعالى إليه من العلم الحق والعقيدة الصحيحة والعمل الصالح، فقال: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}

(٣) جامع البيان ت شاكر (١٩ / ٣٦٣).

(٤) جامع البيان ت شاكر (١٨ / ٢٠٣).

[مریم: ٤٣]، فحاوره بأنه إن كان لم يعبد تلك الأصنام والأوثان اتباعاً لهواه وهوى آباءه الأقدمين دون حجة وبرهان وعلم، فإن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه علم ذلك وبلغه البلاغ المبين بما بيّن به الحق وأهمية التوحيد، وحذره من الشرك، وأقام على كل ذلك من البينات والحجج ما يعرف به العاقل سبيل الحق ويستبين سبيل المشركين والضالين.

يقول الإمام الطبري (٣١٠) رحمه الله: "قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتكَ فاتبعني: يقول: فاقبل مني نصيحتي؛ أبصركَ هدى الطريق المستوي الذي لا تضلّ فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه" (٥).

وبعد ذلك تحدث إبراهيم عليه السلام عن أن ذلك الذي يعتقدُه والده ويفعله ليس إلا إغواء من الشيطان وإضلال، وليس من العقل أن يترك ابن آدم ما كان عليه أبوه آدم عليه السلام ثم هو يتبع عدوه اللدود الشيطان عليه من الله ما يستحق، وأيضاً ليس من المنطق أن يسمع الإنسان ويطيع لمن يكفر بمولاه وخالقه ورازقه، ولمن يعادي ربه وخالقه ويعصيه، فقال: { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } [مریم: ٤٤].

ثم قال عليه السلام: { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مریم: ٤٥]، فانتقل بعد عرض الحجج والبراهين والترغيب في الحق إلى التهيب من الباطل ومن عواقبه الوخيمة، فمن خالف أمر الله سبحانه وتعالى وخالف شرعه ودينه فهو مهدد بالعقاب الأليم من الله سبحانه وتعالى سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة.

ومع كل تلك الدلائل والبيانات لم يسلم له والده بما ذكر، بل عاند وأصر على شوكه وعاند على ذلك، { قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) } [مریم: ٤٦ - ٥١]، فإبراهيم عليه السلام لم يعرض عن البر بأبيه رغم شوكه وعبادته للأصنام، بل ظل يستغفر له حتى مات وعلم أنه من أعداء الله تعالى فأعرض عن ذلك، كما

قال الله تعالى: { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: ١١٤].

يقول الإمام الطبري (٣١٠) رحمه الله: "فلما تبين له بموته مشركًا بالله، تبرأ منه، وترك الاستغفار له..."

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب...، أنه لما تبين له أن أباه الله عدو، يبرأ منه، وذلك حال علمه ويقينه أنه لله عدو، وهو به مشرك، وهو حال موته على شركه" (٦).

إبراهيم عليه السلام والاحتجاج للتوحيد

المواقف التي دعا فيها إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الشرك وأعمل فيها المنطق والحجة والبرهان ليست بالقليلة، بل هي كثيرة جدًا، ومن تلك المواقف ما قصه الله سبحانه وتعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: ٢٥٨].

فهنا احتج عليه هذا المشرك بأنه يملك شيئًا من خصائص الله سبحانه وتعالى، وأمرًا من الأمور التي ينسبها أهل التوحيد لله تعالى وهو التدبير، فأهل التوحيد يؤمنون بتوحيد الربوبية وهو أفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والملك والتدبير، ولكن هذا الطاغية يزعم أنه يشارك المولى سبحانه وتعالى في التدبير، وأنه يحيي ويميت؛ حيث إنه يؤتى بالشخص من الناس فيأمر بقتله وإماتته فيموت، ويؤتى بآخر فيستحيي من كان يريد قتله فيعفو عنه فيحيي ويعيش، ففند إبراهيم عليه السلام شبهته ونقله من هذه القضية المشتبهة من قضايا التدبير إلى قضية أخرى وهو تدبير أمر الشمس الظاهرة لكل ذي بصر.

"قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: فإن الله الذي هو ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فأتم بها- إن كنت صادقًا أنك إله- من مغربها! قال الله تعالى ذكره: "فبهت الذي كفر"، يعني انقطع وبطلت حجته" (٧)، فطلب منه إن كان مشاركًا لله سبحانه وتعالى في التدبير أن ينقل مسار

(٦) جامع البيان ت شاكر (١٤/٥١٨، ٥٢٣).

(٧) جامع البيان ت شاكر (٥/٤٣٢).

الشمس، وبدل أن تطلع من المشرق يجعلها تطلع من المغرب إن كان بيده شيء من التدبير،
فماذا كان؟!

لقد بهت واندحر ولم يجر جوابًا، وانتصر أهل التوحيد ورفع الله إبراهيم عليه السلام وقمع
أهل الشرك وحججهم وهو الحال مع أهل الشرك في كل زمان ومكان.

إبراهيم عليه السلام وقصة الكوكب

فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتفكير في قصة إبراهيم عليه السلام التي دارت بينه وبين أبيه
آزر، ونقاشه معه ومحاورته له بالحجة والبرهان، وكانت بداية القصة أن أنكر إبراهيم على أبيه
آزر الشرك وعبادة الأصنام، وأبطل ألوهيتها واستحقاقها للعبادة، فقال: "أتخذ أصنامًا آلهة"،
تعبدوها وتتخذها ربًّا دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟" (٨).

ووصف حالهم بالضلال المبين، أي: "يتبين لمن أبصره أنه جورٌّ عن قصد السبيل، وزوالٌ
عن محجة الطريق القويم. يعني بذلك أنه قد ضلَّ هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي
استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة والأوثان" (٩).

والله سبحانه وتعالى قد امتن على إبراهيم عليه السلام وأراه ملكوت السماوات والأرض
كما "قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قولٌ من قال: عنى الله تعالى
ذكره بقوله: "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض"، أنه أراه ملك السماوات
والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من
عظيم سلطانه فيهما، وجلَّى له بواطن الأمور وظواهرها...

وأما قوله: "وليكون من الموقنين"، فإنه يعني أنه أراه ملكوت السماوات والأرض، ليكون
ممن يقرّ بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه
من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى" (١٠).

(٨) جامع البيان ت شاكر (١١ / ٤٦٩).

(٩) جامع البيان ت شاكر (١١ / ٤٦٩).

(١٠) جامع البيان ت شاكر (١١ / ٤٧٥).

وقد أظهر عليه السلام بطلان كل المعبودات التي يعبدها أهل الشرك بأنها زائلة لا دوام لها، فالكواكب والأفلاك والقمر والشمس زائلة وليس لها شيء من الدوام والإله لا يجوز زواله وعدمه بعد وجوده، بل الإله لا بد أن يكون له كمال الحياة وكمال القيومية وذلك لله سبحانه وتعالى، وهذا ما نادى به إبراهيم عليه السلام بعد أن أبطل عبادات المشركين وتبرأ منها؛ حيث انتقل بعد ذلك إلى بيان الإله الحق والأدلة الدالة عليه سبحانه وتعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: ٧٨ - ٨٢]، يقول الإمام الطبري رحمه الله: "لما تبين له الحق وعرفه، شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحق والنبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: "يا قوم إنني بريء مما تشركون" مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من ألهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحيي ويميت = لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع.

ثم أخبرهم تعالى ذكره: أن توجيهه وجهه لعبادته، بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحب من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجه له وجهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيهه الوجه على غير التحنُّف غير نافع موجهه، بل ضارّه ومهلكه وما أنا من المشركين" (١١).

إبراهيم عليه السلام وقصة هدمه للأصنام

ومن عانده واستكبر ووقف أمام دعوته إلى التوحيد قومه الذين دعاهم عليه السلام، فعاندوه واستكبروا وتجبروا على دلائل المولى سبحانه وتعالى وآياته ورسله، وإبراهيم صابر عليهم

محتسب في دعوتهم، يأتيهم بكل وسيلة ليقنعهم ويصبرهم الحق والهدى والصرط المستقيم، فمرة يأتيهم بالأدلة العقلية وتارة يخبرهم بما بلغه الله سبحانه وتعالى، وأخرى يخوفهم بعاقبة المجرمين من قبلهم، وقد يتنزل معهم حتى يأتيهم بأدلة حسية واقعية، وهذا ما حصل منه حين رأى الإصرار من قومه على الشرك وعلى عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها، فأراد إبراهيم أن يوضح لهم بأسلوب حسي واقعي يروونه بأعينهم ويتلمسونه بكل حواسهم، يقول الله سبحانه وتعالى عن ذلك: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَتَيْتُمْ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (٩٤) قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} [الصفات: ٨٣ - ٩٨].

فقد أتى الله سبحانه وتعالى على إبراهيم عليه السلام في مفتتح هذه الآيات بأنه من عباده الموحدين، بل ممن سلم الله قلبه من الشرك كثيره وقليله فقال: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصفات: ٨٣ - ٨٤].

يقول الإمام الطبري في تفسيرها: "يقول تعالى ذكره: إذ جاء إبراهيم ربه بقلب سليم من الشرك، مخلص له التوحيد" (١٢)، وهذه الرفعة التي بلغه الله إياها لم تكن وليد لحظتها بل كانت نتيجة مثابرة ومناجاة والتجاء ودعوات منه عليه السلام كما قال الله تعالى عنه في موضع آخر: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥] وسيأتي الكلام على هذه الآيات تفصيلاً لما لها من ارتباط بالحج والتوحيد.

ثم تحدث عن الوسيلة التي أعملها لدعوتهم إلى التوحيد وبيان زيف وبطلان آلهتهم التي يدعونها وأنها لا تملك لنفسها شيئاً فضلاً عن أن تنفع غيرها أن تضره، فقد دعاه ملكهم لحضور عيد من أعيادهم، وكان قومه من أهل التنجيم فتعلل بأنه رأى شيئاً من النجوم وعلم أنه مصاب بالطاعون فعصب رأسه؛ ليتركه قومه ويعدوا عنه ويتركوه والأصنام التي يعبدونها في

معبدهم، وقد كان ما أراد، فقد اعتزلوه ونكصوا عنه خوفاً من أن يعديهم، فلما تركوه جعل يتهكّم بأصنامهم وتمثيلهم تلك التي يعبدونها، فقرب إليهم الطعام وطلب منهم أن يأكلوها إن كانوا يملكون لأنفسهم نفعاً، فلم يكن بمقدورهم أن يملكوا شيئاً من النفع لأنفسهم، وهل يملكون دفع الضر عن أنفسهم؟!!

نعم، لقد انحال إبراهيم عليه السلام على تلك الأصنام ضرباً وتحطيمًا ونسفًا بفأس من حديد، ولم يكن بمقدور واحد من تلك الأصنام أن يدفع عن نفسه ذلك الضر، فكيف يعبد عاقل شيئاً لا يملك نفعاً لنفسه ولا ضرراً؟!!

فقد حطّمها عليه السلام وجعلها قطعاً متناثرة، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الأكبر، كما فصل المولى سبحانه تعالى ذلك في قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} [الأنبياء: ٥٨ - ٦١]، وهنا أقام عليهم الحجة والبرهان، فجاءوه عجلين مسرعين، وسألوه و {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} [الأنبياء: ٦٢ - ٦٥]، فأحالمهم إلى آلهتهم التي يعبدونها ليسألوها، إن كانت آلهتهم تملك نفعاً أو تدفع عن نفسها ضرراً، وبذلك قامت عليهم الحجة وبان لهم بطلان ما يعتقدونه من تأليه تلك الآلهة وعبادتها من دون الله سبحانه وتعالى، فمن يتفرد بملكية النفع والضر هو المستحق للعبادة وإفراده بها.

فاحتج عليهم إبراهيم عليه السلام بذلك و {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ٦٢ - ٦٧].

فما كان منهم إلا أن عتوا وعاندوا وازدادوا غيا إلى غيهم، ولجأوا إلى منطق التجبر بالقوة بدلاً من المقارعة بالحجة كما هو حال الظلمة والمجرمين مع الرسل والأنبياء، فحاولوا إحراقه ولكن الله عز وجل أنقذه؛ حيث نادى إبراهيم عليه السلام ربه ولم ينج غيره وأظهر إخلاصه

وتوحيده لله سبحانه وتعالى وقال حسبنا الله ونعم الوكيل (١٣)، وكان التوحيد من الأمور التي عصمته من حرّ تلك النار بإذن الله سبحانه وتعالى.

وأيضاً حذرهم وخوفهم وهو في تلك الحال من الإشراف بالله سبحانه وتعالى { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [العنكبوت: ٢٤ - ٢٧].

فأهل الشرك والوثنيون يتخذون من معبوداتهم يتوادون بها فيما بينهم، ولكن ذلك كله سيكون سراباً في الآخرة ولن يبقى بينهم شيئاً، يقول الإمام الطبري: "الذين اتخذوا الأوثان آلهة يعبدونها، اتخذوها مودة بينهم، وكانت لهم في الحياة الدنيا مودة، ثم هي عنهم منقطعة... يقول تعالى ذكره: ثم يوم القيامة أيها المتوادون على عبادة الأوثان والأصنام، والمتواصلون على خدماتها عند ورودكم على ربكم، ومعاينتكم ما أعدّ الله لكم على التواصل، والتوادّ في الدنيا من أليم العذاب، (يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) يقول: يتبرأ بعضكم من بعض، ويلعن بعضكم بعضاً.

وقوله: (وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ) يقول جلّ ثناؤه: ومصير جميعكم أيها العابدون الأوثان وما تعبدون، النار (وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) يقول: وما لكم أيها القوم المتخذو الآلهة، من دون الله (مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) من أنصار ينصرونكم من الله حين يصلحكم نار جهنم، فينقدونكم من عذابه" (١٤).

الخاتمة

لم ينته الحديث عن إبراهيم عليه السلام بل هنا مبتدأ الحديث عن حج بيت الله الحرام، فقد نصره الله على أولئك ونجاه من النار وجعلها عليه برداً وسلاماً، ثم أمره بالخروج من أرض العراق إلى الأرض المقدسة في الشام ومعه زوجته سارة عليها السلام فأقام بها، ثم انتقل إلى مصر ثم إلى فلسطين، ولكنه رغب في الولد وكانت زوجته سارة عقيماً، فأهدت إليه جارية

(١٣) صحيح البخاري (٤٥٦٣).

(١٤) جامع البيان ت شاكر (٢٠ / ٢٥).

تسمّى هاجر، ومع هاجر عليها السّلام بدأت قصة ماء زمزم والسعي بين الصفا والمروة وبناء البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والقائمين وإلّاكع السجود، وهو محل حديثنا في الورقة الثانية. وصى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يتبع هذه الورقة ورقة أخرى